

## رؤية الغرب عن الإسلام

### كلمة أ.د محمود إسماعيل

سأحاول رصد معالم رؤية الغرب عن الإسلام وأتوه بأننى سوف أعرض لهذا الموضوع الطويل الممتد زماناً داخل إطار زمانى كبير يبدأ حقيقة منذ ظهور الإسلام وحتى قبل ظهور الإسلام وفى إطار رقعة مكانية متسعة من سور الصين العظيم إلى البحر المحيط لأؤكد حقيقة هامة وهى أن التصور التقليدى الشائع فى هذه الأيام حول أن الغرب نظر إلى الإسلام نظره وحيدة ، والبعض يرى أنها نظرة إيجابية تعنى من قبل الغرب الاعتراف بتقدم الحضارة العربية الإسلامية والبعض الآخر يرى أنها العكس ، حيث ينظر الغرب وفقاً لمقولته عن مركزية الحضارة على أنه ربما اليونان هم أصل الحضارة وأنهم رواد الحضارة الغربية المعاصرة ، ومن ثم فالحضارات الأخرى هى حضارات ساقطة .

ما أحب أن أقدمه هو أن هذه النظرة كانت ديناميكية ذات منعطفات شتى تعددت حيناً ، تطرفت أحياناً وتوازنت فى بعض الأحيان ثم أصبحت فى النهاية تيارات شتى ورؤى كثيرة والسؤال هو لما ذا حدث هذا الذى حدث ؟

والإجابة عن ذلك تعنى العودة للتاريخ ، وسأحاول ربط الموضوع بعدة خطوط منهجية هامة الخط الأول ويتمثل فى تغير رؤية الغرب للإسلام والمسلمين وفقاً للتطور الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ومن ثم تطور العقلية الأوروبية تأسيساً على التغيرات فى نمط الإنتاج من العبودية إلى الإقطاعية إلى البرجوازية إلى الرأسمالية إلى الرأسمالية الإمبريالية .

كل هذه المنعطفات فى تطور التاريخ الأوروبى العام ولدت بالضرورة عن التطور الثقافى فى العقلية الأوروبية نظرة استعمارية .



جانب آخر أيضاً وهو الخط الثانى وهو أن هذه الرؤية تأثرت فى كثير من الأحيان بموقف العالم الإسلامى نفسه ، اذ سجد فى القرون الإسلامية الأولى أوربا تقف موقف المدافع والإسلام موقف المهاجم ، ومن المؤكد أن المهزوم عندما ينظر إلى المنتصر سوف تتلون رؤيته له حتى ولو تعلق الأمر بقضايا عقلية ، ستعكس الآية فى النهاية حيث نشاهد منذ منتصف القرن الخامس الهجرى وحتى هذه الساعة تحول المعادلة لصالح الغرب ، أصبح الغرب هو المهاجم وأصبح العرب والمسلمون فى موقف المدافع ، كل ذلك سوف يؤدى إلى ألوان شتى أشبه بألوان الطيف لتحديد هذه العلاقة فيما يسمى بمنظور الغرب للإسلام .

وسأحاول بإيجاز شديد أن أقدم رؤية بانورامية حسبها أن تعرض لرؤوس الموضوعات على أساس تقديم تصور مقنن محدد يعتمد " التاريخية " فى رصد تطور نظرة الغرب إلى الإسلام ، من الأمور التأسيسية أن هذه الرؤية بين الإسلام وبين الغرب لم تظهر فجأة بل سبقها صراع طويل بين الشرق والغرب يتمثل فى اليونان والفرس أولاً ثم الرومان والعالم الشرقى ، ثم نظرة استعلائية منبثقة عن طبيعة المجتمع الأوروبى فى المرحلة العبودية ، هذه العبودية كانت موجودة داخل هذه المجتمعات نفسها، فعلى سبيل المثال نعلم أن أرسطو نفسه كان يؤمن بالعبودية وكان يقول لا بد من وجود مجتمع مسترق كشرط أساسى لوجود مجتمع الأحرار وهذه الرؤية انتقلت بالفعل إلى العقل الأوروبى ان جاز التعبير فكانوا ينظرون إلى الشرق متمثلاً فى الإمبراطورية الفارسية التى كانت تتاطحهم القوة فضلاً عن الحضارة والميراث الشرقى الذى يعتبر أساسياً محورياً للحضارة الهلينية على أنه من عمل اليونان ومن بعدهم الرومان وان كانت متأثرة بمعطيات الحضارة المصرية الفرعونية أو حضارات الشرق القديم وحضارات الهند وحضارة الصين ٠٠٠ الخ ، إذا كان الغرب الذى تلقى ثم قام بتوصيل ما يتعلق بالعلم اليونانى الذى كان ينظر إلى عالم الشرق باعتباره عالماً منحطاً وعالماً متخلفاً وعالم المتبربرين وعالم سقوط الحضارة .

وربما كان الاسكندر قد خالف هذه الرؤية وهذه النزعة وخالف رأى أستاذه أرسطو

فكانت حروبه بها قدر من الاستفادة تحمل البعد الإنساني العام فصور غزواته للشرق على أنها محاولة للتزاوج بين نهضتى الشرق وبين الروم ، وفكر على هذه الدرجة من " الهيومانية " ما كان ليستمر أو ينجح أو يحقق أغراضه .

جاء الرومان وهم ورثة اليونان بالفعل وغزوا الشرق وكونوا إمبراطورية وظلت أيضاً هذه الرؤية الاستعلائية إلى الشرق موجودة ، فكانت كلمة العرب يطلقون عليها " saracence " وهى تعنى عند الرومان البدو الرحل الذين تتأسس حياتهم على منطق الغزو والكر والفر والسلب والنهب والوحشية .

لقد كان المجتمع الرومانى أيضاً مجتمعاً طبقياً استعلائياً حتى أن حقوق المواطنة وكانت تعنى حق التجارة وحق الزواج وحقوق أخرى مرت بأطوار كثيرة داخل المجتمع الرومانى نفسه ، وكان هناك اختلافات ونزاعات ولكن كان هناك طبقة النبلاء وطبقة الفرسان وطبقة الرامون بالحجارة ٠٠٠ الخ، فإذا كان هذا الحال هو سمة المجتمع الرومانى نفسه فلا أقل من أن تنعكس الصورة على أولئك الأسويين والأفارقة وال " Saracence " بنحو خاص باعتبارهم أجلاف متبربرين غزاة .

ثم ظهر الإسلام وأحدث هزة جغرافية ، ضرب الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية البيزنطية وفى العصر الاموى جرت محاولة غزو القسطنطينية ثلاث مرات ، ثم اتسعت هذه الغزوات فى الشرق فاستولى المسلمون على جزر البحر المتوسط واجتاحت جيوشهم ايطاليا وتعرضت روما مركز البابوية نفسها لغزوات الأغالبة مرتين ثم انساحت هذه الفتوحات وضمت أسبانيا وجنوب فرنسا حتى معركة " توروبواتيه "

بطبيعة الحال هذه الهجمة الشرسة جعلت أوروبا تكون فكرة خاصة عن الإسلام والمسلمين مفاد هذه الفكرة بإيجاز شديد هى الاستمرار الموروث "الجريكو- رومانو" القديم مع تطعيمه برؤية كنسية خاصة وأن العالم البيزنطى والعالم الأوروبى آنذاك قد انتقلا من طور العبودية إلى طور الإقطاعية ومعروف أن الإقطاعية تفرز فكراً لاهوتياً كنسياً دينياً وهى رؤية منغلقة ، ذات نزعة عنصرية إثنية متعصبة ٠٠٠ الخ فكانت

ثقافة أوروبا فى العصر الوسيط بوجه عام ثقافية دينية تتلخص كما يقال فى الفنون السبعة الحرة وهى كلها فنون لاهوتية أو تخدم اللاهوت بشكل أو بآخر .

هذه الشعوب المهزومة كان لابد أن تصور الإسلام ونبى الإسلام وعقيدة الإسلام تصويراً سلبياً فعلى سبيل المثال كانت الرؤية السائدة أن محمد (ص) هذا وثنى وإنه كان يمثل ثالثاً لذيانة كان ينتمى بعضها لليهودية وكان مصطلح اليهود آنذاك مصطلحاً مبغضاً ، على عكس ما هو الآن ، فهناك حديث حول دور إسرائيل والصهيونية العالمية فى حل الإشكالية ما بين المسيحية واليهودية باعتبار المسيحية نتاجاً لليهودية والحديث الذى يجرى الآن عن اليهودية المسيحية أو عن المسيحية اليهودية ٠٠ إلخ ، وعودة المسيح مخلصاً مرة أخرى، وإسرائيل وما يجرى بينهما وبين العرب من صراع ، تصوير على إنها من العهد القديم وإنجيل يوحنا باعتبار الإسلام آنذاك وباعتبار محمد(ص) هو المسيح الدجال

بعد ذلك سيتعاطم دور الإسلام والمسلمين وتتخبط معلومات أوروبا عن الإسلام والمسلمين ، ثم تتطور نتيجة للحروب الصليبية ونتيجة للوجود الإسلامى فى الأندلس، ووجدنا الكنيسة قامت بدور كبير فى هذا الشأن ومع ذلك قامت البابوية مع الأديرة الكولونية بمحاولة استنفار أوروبا تحت شعار الصليب لطرد العرب من الأندلس وطرد المسلمين من بلاد الشام وعودة بيت المقدس إلى الصليبيين ، أو فيما عرف بحركة الاسترداد الأوروبى أى بداية حركة الروكونكويستا " الاسترداد المسيحى لاسبانيا من العرب المسلمين الهمج " ال " مور " وكلمة " مور " أيضاً كانت تعنى المسلمين المغاربة، وكانت لها نفس دلالة كلمة " Saracense " فى القواميس والمعاجم الأوروبية . وبدأت حركة الاسترداد فى الأندلس بالرغم من حالة التسامح الكبرى التى يتحدث عنها النقات من المؤرخين الأوربيين المعاصرين من أمثال كلود كاهن الذى تحدث عن التسامح الإسلامى باعتباره أمراً لم يتحقق فى تاريخ البشرية لا سابقاً ولا لاحقاً ومع ذلك قامت البابورية مع الأديرة الكولونية بمحاولة استنفار أوروبا تحت شعار الصليب لطرد العرب من الأندلس والمسلمين من بلاد الشام وسوف تصور هذه الرؤية العالم

الإسلامى ونبى الإسلام صوراً أكثر بشاعةً فصور الرسول عليه الصلاة والسلام على أنه أفق ودجال وأنه بدوى أباح العلاقات الجنسية واتخذوا من قصة زواجه مادة لذلك. وصوروا حتى نجاحات الإسلام والفتوحات المظفرة باعتباره دين حياة ودين يستفز الغريزة

ويعطى لطلاب الدنيا ضالتهم فى هذه العقيدة ، بل إنهم صوروا الرسول (ص) بأنه مصاب بنوع من العصاب والمرض النفسى وصوروا هذه الحالة على أنها حالة من حالات الصرع . . . الخ .

ثم تنتقل أوروبا لمرحلة ثانية فى عصر النهضة حيث بدأت البنية الإقطاعية فى التخلخل تحت الحاح وظهور بواكير الطبقة الوسطى أو البورجوازية الأوروبية وكانت معظمها بورجوازية تجارية وكانت نشطة فى التعامل مع العالم الإسلامى وقد بدأت تتطلع عن كثب لمعطيات الحضارة الإسلامية التى وصلت إلى أوج ازدهارها فى القرنين الرابع والخامس الهجريين .

ومع ظهور البورجوازية بطبيعة الحال تحجمت الرؤية الكنيسة إلى حد كبير ، ومع البورجوازية تبدأ العقلانية وتبدأ المبادئ الهيومانية ، فالنهضة كانت حركة احياء للتراث الكلاسيكى الرومانى ، فلما بحثوا عنه لم يجدوه إلا عند العرب هذا من جانب ، من جانب آخر فإن المصالح التجارية للمدن الإيطالية والثراء الناجم عن ذلك قد أحدث التناقض بين المدن ودوقاتها ، بين البابوية من جانب والإمبراطورية البيزنطية من جانب آخر ، فكانت تصدر قرارات الحرمان على حكام نابولى ولكنهم ضربوا بقرارات البابوية عرض الحائط ولما علموا الهيومانية الجيدة بانفتاحهم على حياة المسلمين وحتى فى المدن الإسلامية فى أوروبا ، ولذلك كان لابد لهذه النزعة الدنيوية فى العقلية الأوروبية حتى تتخلص طبيعياً من الرؤية الكنسية التى كانت تعتمد على معلومات إما موروثية من عصر العبودية القديم أو موروثية من الأفكار البيزنطية الخرافية والأسطورية أو المتأثرة بالهزائم المتلاحقة من جانب المسلمين .

عندئذ بدأت النظرة تتعدل إلى حد كبير ووجدنا بالفعل أن الإطار المرجعى للأوروبيين

عن العالم الإسلامى يبدأ فى التغير ووجدنا التجار وإذا نظرنا للتاجر تحدثنا كثيرا عن العلم ، فالعلم والتجارة متلازمان فى العصر الوسيط فتبادل البضائع كان يتبعه بالضرورة تبادل للأفكار والسمات والمعايير الأخلاقية والرؤى الجمالية... الخ

إذا نحن أمام رؤية جديدة لحركة النهضة ، كذلك الضرورة العملية التى جعلت إحياء الحضارة الكلاسيكية القديمة ومطابقتها موجودة عند المسلمين عندما اطلعوا عليها وعلى إضافات المسلمين فى هذا الصدد كان لابد أن يغيروا من نظرتهم السيئة أو على الأقل أن يخففوا من هذه النظرة وخصوصاً بعد ترجمة القرآن الكريم وبعد قيام دراسات نقدية لأن روح النقد من أهم إنجازات النهضة

أضف إلى ذلك أن الصراع فى أوروبا بين البابوية والإمبراطورية قد لعب دوره فى فرض سيطرة البابوية والمعابد الكنسية بوجه عام حيث كان العلم والتعليم فى أوروبا آنذاك مركزاً فى الأديرة والمدارس الكنسية، ومن جانب آخر وجدنا أيضاً مقومات هذه النهضة التى غيرت فكرة الغرب عن الإسلام فى حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا وهى حركة كما نعلم تأثرت ببعض الأفكار الإسلامية والشرقية خصوصاً بمذاهب المعتزلة وأفكارهم .

إذن لابد للغرب أن يعدل من نظرتهم للمسلمين وأن يتبع رؤية واقعية ، وأصبحت المرجعية بدلاً من الأفكار الموروثة الكلاسيكية أو الأفكار الكنسية البيزنطية أو الأساطير والخرافات التى كانوا يروجونها بين الشعوب الأوروبية كان لابد أن تتقلص وأن تتغير إلى رؤية ذات نظرة متوازنة ، ووجدنا بالفعل بداية الترجمات : ترجمات عن العربية من خلال الأندلس ، حيث أصبحت المظان فى أوروبا تعتمد على مصادر عربية إسلامية لأول مرة .

أيضاً معانيات الصليبيين أثناء وجودهم بالشام ، ووقوفهم على القيم المثالية كموقف صلاح الدين على سبيل المثال من ريتشارد قلب الأسد خصمه اللدود كان هذا يمثل انتقال روح الإسلام بالفروسية إلى أوروبا التى أثرت تأثيراً كبيراً سواء على المستوى الرسمى أو على المستوى الشعبى العام .

يضاف إلى ذلك أن ترجمة ابن شد و ترجمة ابن سينا والرازي وغيرهم ٠٠ ثم ظهور بواكير الجامعات الأوروبية وخصوصاً في إيطاليا أو في فرنسا أو إرهابات هذه الجامعات كان مرتبطاً بعلوم المسلمين فهذا " دانتي اللجيري " عنده رؤية مغيرة للرؤية الكنسية ومحاولة لإحداث توازن في رؤية الإسلام ، بل في بعض الأحيان قارن هؤلاء بين الحضارة الإسلامية المتطورة وبين الحضارة الأوروبية المنحطة آنذاك .

وعلى سبيل المثال نجد أنشودة رولان على صعيد الأدب الشعبي (الفولكلور) جاءت محملة بروي جديدة عن الأبطال المسلمين في الأندلس .

تحرير أراضيتهم ، وإحياء أمجاد سيرة " صلاح الدين " وتصويره على أنه كان عربياً مسلماً من الطراز الأول ، بل حتى أيضاً وهذا نوع مما تلعبه الأسطورة التي تنطلق من حقيقة موضوعية فقد صوروا صلاح الدين بمثاليته وفروسيته على أنه كان مسيحياً ، والنورمان عندما استولوا على جنوب إيطاليا ودخلوا في صراع مع البابوية استفادوا من التراث العربي الإسلامي ولك أن تعرف ما أقامه الإمبراطور " روجر الثاني " في بلاطه من نقوش وفنون إسلامية مثل النقود والعملة الإسلامية ، والإدريسى وغيره وغيره من أعلام العرب في الجغرافيا وغير الجغرافيا كانوا رجاله وعدته ، والإمبراطور فردريك الثاني فيما بعد وعلاقته بالملك الكامل ، وفي هذا المناسبة أنوه بالعالم العظيم الدكتور رأفت عبد الحميد الذي قدم عملاً حول دراسة الصراع بين البابوية والإمبراطورية وفردريك الثاني على نحو خاص نتيجة ميوله وإعجابه بالحضارة الإسلامية وتشجيعه للنزعة " الهيومانية " وإحلال السلام والتعاون العلمي والثقافي والأدبي بدلاً من السيف والصليب اللذين أخفقا بالفعل في تحقيق أهداف أوربا في استرداد بيت المقدس ونجح عن طريق المهادنة في تحقيق الوئام مما أسفر عن تحقيق الهدنة ، ولك أن تتصور أن سلوكه كان محترماً في كثير من الأوساط العلمية والأوروبية آنذاك .

وأمراء الإقطاع آنذاك وبواكير البورجوازية الجديدة كلها باركت هذه الرؤية وفقاً لحدوث تغيير أساسي في العقلية الأوروبية نفسها كنتيجة طبيعية لانتقالها من المجتمع

الإقطاعى إلى المجتمع شبه البورجوازى أو الرأسمالية الجنينية آنذاك .

يستمر الحال على هذه المنوال حتى يظهر نجم الدولة العثمانية وهنا نقف أمام مسألة فى غاية الأهمية أثارت كثيرا من الإشكاليات اذ أن الصورة المتعارف عليها حتى من جانبنا كباحثين عرب عن الدولة العثمانية عندما يذكر اسمها يقرن بالتخلف الذى حدث فى العالم الإسلامى طوال خمسة قرون من الزمان ، فهذه الأفكار لابد أن تراجع وعلى المتخصصين فى ذلك أن يقوموا بدراساتهم فى هذا الصدد ، إذ أن حقيقة الأمر أن الانهيار قد وقع بالفعل منذ منتصف القرن الخامس الهجرى ، وأن الدولة العثمانية وغزوها أوروبا قد ضربت المثل للأوربيين فى نواحى شتى أثبتت أولا أنها أنموذج لدولة كبرى منظمة لأن أوروبا كانت تعيش آنذاك عصر الهجمة ، والصراع بين النبلاء الإقطاعيين وبين البورجوازية المظفرة وظهور الدولة بالمفهوم القومى أو المفهوم الوطنى ، بينما كانت الدولة العثمانية نموذجا لدولة متماسكة لها نظم ، بل الأكثر والأهم دولة متسامحة على الصعيد العقائدى والدينى ، وحسبنا أن أوروبا التى كانت آنذاك فى صراعات رهيبة مابين البروتستانت والكاثوليك وحركات أخرى متهرطقة وغيرها ، ناهيك عن الصراعات بين الكنيسة الشرقية والبابوية والكنيسة الغربية ثم الصراعات بينها وبين كنيسة الاسكندرية وكنائس أنطاكية ، لقد قدمت الدولة العثمانية نموذجا للتعايش الإنسانى بين المال والنحل على اختلاف أنواعها .

وقد تسربت هذه الروح الى الأوربيين بالفعل وأصبحت النظرة الدينية تحل محلها النظرة السياسية ووصل الحال لدرجة أن البابا بيوس الثانى قد بعث وفدا إلى السلطان محمد الثانى فاتح القسطنطينية يدعوه ويمجد أعماله ويتمنى لو اعتنق المسيحية ليكون شرفا للعالم المسيحى ، وأنه لو فعل ذلك فسوف يجعل الغرب كله تحت سيادته ولاشك أن هذا قد أحدث نقلة هائلة ولايمكن أن تحدث هذه النقلة جذافا عن طريق صليل السيوف بل عن طريق التماس السلمى عن طريق نموذج حضارى متطور .

من تأثير ذلك أيضا أن المسلمين الذين كانوا يعتقدوا أنهم إما وثنيون أو أنهم كانوا استمرارا لليهودية المبغضة عند المسيحيين آنذاك تحولوا فى نظر الغربيين وفى كثير



من المجامع الكنسية المسكونية إلى حد تصوير الإسلام على أنه نحلة من نحل المسيحية الشرقية .

وأيضاً النزعة اليهودية حدث فيها تأثير وحدث فيها نوع من التطور بل أصبح هناك نوعاً من التعاون غير المباشر بين المسلمين وبين الأوروبيين المسيحيين في مواجهة المغول الوثنيين وكان الخطر المغولي كما تعلمون بعد اجتياح وسط آسيا يهدد أيضاً باجتياح أوروبا بطبيعة الحال ووجدنا لأول مرة في بلاط أحد خانات المغول دعاة من قساوسة أوفدتهم البابورية وفقهاء مسلمين حيث قامت محاورة كبرى في علم الأديان المقارن إن جاز التعبير، كل يتحدث عن دينه ، والغريب أن القساوسة وفقهاء المسلمين وقفوا جنباً إلى جنب ضد الوثنية وربما كان ذلك سبباً لاعتناق بعض المغول المسيحية واعتناق بعضهم الآخر الإسلام .

في كل الأحوال الصورة بالفعل تغيرت إلى حد كبير ، حتى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر وهو عصر الأنوار والأفكار العظيمة والعقلانية والتي كان للتراث العربي الإسلامي دوراً كبيراً عن طريق نقلها إلى أوروبا بواسطة العثمانيين وعن طريق التجارة ، إذا أن البورجوازية التجارية المظفرة وانتصارتها في تحدياتها للبابوية والأباطرة الرومان كان لها الغلبة ولها السيادة على الصعيد الحياتي ووجدنا بالفعل مع القرن الثامن عشر وعصر الأنوار وظهور العقليات الكبرى وظهور الأفكار ، كان من الطبيعي أن تتحسن الصورة الخاطئة " صورة الإسلام في نظر الغرب " إذا أدركوا البون الشاسع بين التراث العربي الإسلامي الذي كانت قد ترجمت الكثير من كتبه وبين أوروبا التي كانت لا تزال تعاني من الانغلاق داخل اللاهوتية الكنسية آنذاك .

ووجدنا بالفعل في كل نواحي المعرفة ، كلمة العرب التي كانت كما قلنا تعبر عن " Saracence " أو ال " مور " وكانت كلمة مبغضة ، أصبحت كلمة العرب في أوساط الفلاسفة الأوروبية في العصر الوسيط ذات معنى جميل وتلك نقلة كبيرة على صعيد التفكير وعلى صعيد الرؤى وعلى صعيد التعامل مع هذا التراث ، أيضاً المعارف التي كانت تستمد من اللاهوت أو من الصور المعروفة والموروثة عن الكنيسة أو عن الدولة



البيزنطية القديمة وأصبحت السيادة فيها للمطان العربية الإسلامية .

ووجدنا على صعيد الأدب جوته وديوانه الشرقى والإنبهار العظيم فى أشعاره بالعرب والشهامة العربية وعن وعن ٠٠٠ الخ ، والفضائل العربية كل ذلك كان له أثره فى العقلية الأوروبية، أيضا على مستويات أخرى كثيرة حدثت نقلة كبرى، فى القرن التاسع عشر، عصر الرأسمالية المظفرة وبعد تأسيس الدولة القومية ثم بداية مرحلة الإستعمار، بدأ الحديث عن الإستشراق ويكفى العمل الذى قام به ادوارد سعيد كعمل محمود يستحق الإشادة ، أيضا العمل الذى قام به حسن حنفى وهو يستحق التقدير والشكر ، فقد أثبت هذا العرض البسيط والموجز جداً أن العقلية العربية هى الأرقى، وأننا نحن الأجدر بأن نقيم حضارة الغرب وليس للغرب أن يقيم حضارة العرب والمسلمين .

ولكن باختصار أشير إلى بعض رؤس الموضوعات الهامة جداً ، إن الإستشراق سيؤدى إلى الكشف عن الكثير من التراث العربى الإسلامى وتحقيقه وإقامة كراسى الأستاذية فى الجامعات الأوروبية وإنشاء الدوريات والمجلات العلمية ٠٠٠ الخ ، لكنها من ناحية أخرى كانت تحمل ثقافة من أجل الإستعمار ، وتقدم معلومات فى غاية الأهمية ، وحتى الرحالة الذين قاموا بدور مهم قبل كارستن نيبور الذى زار الجزيرة العربية أو لورنس العرب أو فولنى وأسماء كثيرة جداً ٠٠

بالرغم من ذلك بدأ هؤلاء يحتكون بالناس وبمعطيات الحضارة الإسلامية ويعيشون فى مدن القاهرة ودمشق وبغداد ويشاهدون مشاهدة العين ، هذا التطور من جانب الحضارة العربية الإسلامية قبل مرحلة الإنكاس والتى كانت مع ذلك تستطيع أن تقف موقف السند للند مع ما كان يجرى فى أوروبا آنذاك ، ولذلك وجدنا الكثير من الأفكار الإسلامية التى تأثر بها المفكرون فى عصر الأنوار ، وهناك جانب آخر للاستشراق وهو الأخطر حيث نجد أن كتابات الاستشراق غير بريئة عندما تركز على دراسة الاثنيات بهدف مفاده النظر إلى العالم باعتباره مجتمع اثنيات ، فسيفساء أصله العقيدة الدينية وهذا الكلام ينقل إلينا عن طريق اللغة ولكنه كالمسم فى العسل لأنه يعنى الغاء

التطور الطبيعي والغاء العوامل الكامنة في كيان المجتمع الإسلامي نفسه ، أيضاً حين تدرس القطيعة بين المشرق والمغرب والآن بعض المراهقين من المفكرين العرب المغاربية يتبنون هذه القضايا وهذه الأفكار ويعيدون صياغتها بلغة حديثة وبمنهجيات أوربية تفكيرية أيضاً مبهرة ومأكثر انبهارنا بذلك ولصديقنا دور عظيم في الوقوف والنضال أمام مواجهة هذه النزوات الاستشراقية العربية الجديدة .

وفى الاستشراق أيضاً ومن خلال الرسائل المتبادلة بين انجلز وماركس عن الأركيولوجيا وعن ابن خلدون حتى قيل إن ماركس ربما قد اطلع على مقدمة ابن خلدون لأنه وجدت نسخة في المكتبة الأهلية بباريس عليها خطه ، صح ذلك أم لم يصح ، فإن الاستشراق الاشتراكي نظر للإسلام نظرة مختلفة باعتباره دورة إنسانية عالمية وأنه نقل البشرية إلى مرحلة أروع وأحسن وأحكم تحقق فيها العدل والأمان إلى حد كبير .

أيضاً بدأ التوجه الاستشراقي نحو مجالات جديدة ، وحتى من قبل المؤرخين العرب أنفسهم دراسة أنماط الانتاج ، دراسة الطبقات والتشكيلات الاجتماعية ، والغرب في مواجهة ذلك حاول الانتقال من المرحلة التجزئية إلى منهج التجزئة الذى يستهدف تجزئة العالم الثالث لمحاربة الوعي وتكريس الاستعمار وتكريس مابعد الاستعمار فى قضايا الطائفية وقضايا الحروب وقضايا الاثنيات والأقليات ٠٠ الخ ، وحاولوا تقديم رؤية شمولية وكانت هذه الرؤية مدبرة وكانت تلح على أمرين ، الأمر الأول التاريخ السياسى وبعضهم وخاصة الاستشراق الألماني يرى أن التاريخ السياسى لا يمكن عزله عن التاريخ الاجتماعى وأنه يحمل قوانينه الدينامية التى تحركه لمواجهة الرؤية الشاملة لتصورات الاشتراكية ، نظرة أخرى أيضاً إلى الأصول الاجتماعية على اعتبار أن الكتاب الماركسيين يدرسون تاريخ الشرق وخصوصاً بعد الأطلاع على كنوز المخطوطات باعتباره يشكل رصيذاً كمياً هائلاً للمعارف الإسلامية أرجو أن تتاح الظروف لكى تخرج إلى حيز الوجود وتكون بين يدي الباحثين لتغيير نظرتنا نحن أنفسنا ، فى مقابل ذلك لم يدرسوا الطبقات وقالوا أن المجتمع لا طبقى

ونحن فرحنا كالعادة بسذاجة ، فهي ليست دراسة البني الاجتماعية ونمط الإنتاج وإنما الحديث عن العادات والتقاليد مثل الزواج والطلاق والعرف والمولد والأعياد ٠٠٠ الخ أيضاً بعد ذلك فتح باب النقد المعاصر ولما درسوا الاجتماعيات المنطقية لم يتأثروا بالمادية التاريخية وإنما تأثروا بالذات الهيجلية الدوركايمة الى حد كبير وحتى ظهور إسرائيل والصهيونية فيما بعد كل ذلك من الأشياء التي تحولت مرة أخرى الى إحياء النزعة الكنسية والرؤية الكلاسيكية القديمة من العصور الوسطى المظلمة لتحقيق أهداف وغايات سياسية .

بعد ذلك سنأتى إلى العصر الحديث حيث حدث حدثان هامين أثرا تأثيراً كبيراً فى المعرفة وفى رؤية الغرب عن الشرق ، الثورة الإيرانية التى قدمت نموذجاً إنسانياً للتجربة الإسلامية الدولية ولذلك هلعت الأوساط السياسية والعلمية الأوروبية وإندفعت فى متابعة هذه الثورة ، كيف ؟ إسلام العوام " وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم " ، فانبثرت أوساط البحث العلمى لمحاصرة الثورة الإيرانية فكرياً وعلمياً وبدأوا يشككون فى الفكر الأثنى عشرى وهو من أعظم الأفكار التى أنجبتها العقلية الإسلامية من حيث تبنى قيم العدل الاجتماعى .

ثم يأتى ظهور العولمة ٠٠٠ إلخ والأخطر من ذلك كله ما حدث من محاولة لفرض النموذج الغربى وظهور " الخصوصية " والخصخصة و ٠٠٠ إلخ ، كل هذه الأشياء كانت تحكم بالفعل من حيث لاندري ، ونحن نتكلم عن عملية البحث عن الهوية ومواجهة الآخر ، فالغرب لايعرف غير وسائل إنتاجه وقوى إنتاجه وسوف تتغير شاء أم أبى أنماط حياته وسلوكياته وأخلاقياته وقيمه ، ولذلك ليس جزافاً انه لا توجد قطيعة بينى بين أبى ( حوالى ٥٠% أو ٦٠% ) ، أما فيما بينى وبين أبنى فلا شىء ، فابنى صاحب الجينز والكاكولا والبيبسى وال Take Away وابنتى تلبس ملابس أخوها وأخوها يلبس ملابس أخته كل ذلك لأن تغيير الإطار شمل تغيير كل وسائل الحياة وهنا يكمن الخطر فقضية المواجهه تصبح غير ذات موضوع ، لأن الناس يختلفون فى عوائدهم ونحلهم وحظهم من المعرفة ، والمسألة لازالت تجرى الآن ، وهناك بعض

الساسّة الأوروبيين من إنجلترا كتبوا عن الإسلام ولن يلتفت احد الى كتبهم رغم ما تضمنته من خطورة، لما تشكله من رد فعل داخل الدول العربية ضد الحكام ، وهناك بعض الكتب التى تحدثت عن نهاية التاريخ وإن الرأسمالية هى النظام الأمثل تأسيساً على المرجعية القائمة على فكرة أن البقاء للأقوى أو بالأحرى أن الأقوى هو الأصلح ولكن هذه مغالطات غير مقبولة فهناك تطورات ونذر لميلاد جديد للتاريخ ، وإن القوة تولد القوة ثم تأتى مرحلة فقدان القوة والثور الأمريكى الهائج والأمريكان الجهلة بالسياسة ، " فبوش " لايعرف شكل خريطة العالم ولو سألته عن دولة لايعرف إسمها ، وهكذا فالموقف الأمريكى لايعنيه فى شىء سوى الحفاظ على الهيمنة المعنوية وعلى السيادة والسيطرة الإقتصادية ، وبالتالي نشر الأنموذج الأمريكى ، ولكن بالفعل كل الشواهد تنبئ الآن باننا امام مرحلة تاريخية مفصلية نقول بانهيـار الحضارة الغربية وأنا كمؤرخ أشتم رائحة الإنهيار ، والدول الأوروبية ورؤساء ألمانيا وإنجلترا وفرنسا بوضع خاص غير راضين عما يجرى بل وفى الولايات المتحدة نفسها نجد داخلها حركات ومظاهرات تجرى ضد الحرب فى أفغانستان فالترسانة الهائلة التى أنفذوها ليس من أجل ضرب أفغانستان فقط ، وإنما هى معدة لضرب كثير من الأماكن الأخرى والدول العربية وأنا شخصياً أتمنى أن يحدث ذلك حتى يبدأ التاريخ نحو الحراك وعندئذ سيكون الويل كل الويل للطغاة !!